

الثقافة واللغة والمجتمع

د: محمد العربي ولد خليفة
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

1- الثقافة: المفهوم الأداة والمنتج

جرت العادة في الدراسات التقليدية (Scolastiques) ، أن يقترح الباحث تعريفاً يشترط فيه أن يكون جامعاً مانعاً للبحث موضوع اهتمامه ، وتقترح المداخل الحديثة ، ما يسمى الحد الإجرائي ، أو ضبط المنهج وأدواته.

وفي الدراسات الأحدث ، فإن البديل عمّا سبق هو المفاهيم والكلمات المفتاحية (Key words) التي تعني ضبط العملة المستخدمة في مجال بحثي محدد ، بعد أن تبين أن الرسوم والحدود بين علوم الإنسان والمجتمع من جهة ، والعلوم الدقيقة والأداتية (الرياضيات - الإحصاء - الحوسبة ...) من جهة أخرى ، ليست فواصل قطعية من المحرم اجتيازها ، فهي تتقاطع وتتداخل ، ويستفيد كل منها مما يحدث من تقدم لدى جيرانه في شجرة المعرفة بالإنسان والطبيعة والعلاقات بينهما . ألم تنشأ كل العلوم في حضان أمها المعطاء : الفلسفة ؟ ألم يعتبر القدماء من عباقرة الحضارة العربية الإسلامية الأدب ، هو الأخذ من كل شيء بطرف ؟ وذلك التعريف قد لا يعني الموسوعيّة بقدر ما يعني المقاربات المتعددة الاختصاصات (Multidisciplinaires) المطلوبة اليوم في كل ميادين المعرفة.

تعتبر الثقافة من بين المفاهيم التي حظيت بعشرات ، بل بمئات التعريفات فقد أحصى "ألبورت (Allport)" في منتصف السبعينات 340 تعريفاً إقترحها فقط الباحثون الذين يستعملون اللغة الإنكليزية ، وإرتأى أنها تدور كلها حول تعريف سابق اعتبره أباهاً أو أصلها كلها قديمه " أ.تايلر " 1871 (E.Taylor) ومؤداه أن

الثقافة مرادفة للحضارة عند ملاحظتها في الراهن، وتختلف عنها عند تخصيصها بسياق تاريخي متعدد المجتمعات وعندئذ يصبح مجالا أوسع حضاريا (ERE CIVILISATIONELLE)، فقد تكون في مجتمع واحد عدة ثقافات خاصة بالطبقة أو المهنة أو الريف أو المدينة، أو الخصوصية النوعية لما يسمى الثقافات الفرعية subcultures، ولكن لا يكون في المجتمع الواحد عدة حضارات، أي سياقات حضارية متباينة لأزمنة متباعدة في نفس الوقت.

تعني الثقافة حسب تعريف تايلر الآنف الذكر، ذلك "الكل" المعقد الذي يشمل المعارف والمعتقدات والفنون والقوانين والعادات والمعايير الأخلاقية، وكل المهارات (التقانات أو التكنولوجيات) التي حصل عليها الإنسان بإعتباره عضوا في المجتمع الثقافة إذن هي أشبه بخريطة يدوية، أو بوصلة يستعملها الأفراد كل بطريقته الخاصة، وحسب الموقع الذي يوجدون فيه، أو يتحركون منه أو إليه، بدونها لا يعرفون أين هم، ولا إلى أين يتجهون، وكيف يتصرفون مع بعضهم البعض، وإلى أي حدّ يتشابهون أو يختلفون مع أفراد في مجتمعات مغايرة.

تتصدر هذه المسائل مباحث العلم الاجتماعي من القديم وإلى اليوم، تحت عناوين مثل المكانة والدور STATUT-ROLE والوظيفة، والتثاقف ACCULTURATION والنمط MODEL والشخصية القاعدية أو النواة الثقافية للشخصية (Cultural Background) الذي يلقي اهتماما كبيرا عند الباحثين الأمريكيين المهتمين بالامتزاج

والتقاطع بين الثقافات (CROSS-CULTURAL)

إذا كان لا بد من تعريف إجرائي، فإننا نميل إلى اقتراح الأستاذ عيسى بلاطة (من معهد الدراسات الإسلامية، جامعة ماك جيل، كندا)، ومؤدى الاقتراح "أن

ثقافة أيّة مجموعة بشرية، هي حصيلة تجربتها في الزمن، فإن هذه المجموعة إذا تحركت في الزمن من جيل إلى جيل، فإنها تقابل باستمرار حاجات جديدة تُمثّل تحدّيا لها، واستجابة المجموعة للتحديات تشكّل خبرتها في الواقع، وهذه بدورها تضيف إلى ثقافتها، وهكذا فإن الثقافة تتغيّر باستمرار، وتقيم مواءمة بين المؤسسات والمعتقدات والقيم الخاصة بالمجموعة وبين الحاجات الماديّة وغير الماديّة المتجددة أبدا ...، وقد تسمح بعض الثقافات بمدى من التنوّع أكثر من غيرها في إطار وحدتها دائما، ولكن من الصعوبة بمكان أن توجد أية ثقافة تتّسم بتجانس كلّيّ وجامد (أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، ندوة الكويت أبريل 1974).

من الصعب " وَضَعَنَة " (positivisation) ما بين الحالة الراهنة للثقافة، أي التي تسبق تغيّرها، وما يأتي بعدها، وهو ما يسميه عيسى بلاطة " التحرك في الزمان " وكيف تتحوّل إلى خبرة في الواقع، ثم تدرج لدى جيل لاحق في باب العادات والتقاليد، وراء صعوبة " الوضعنة "، أن الباحث هو نفسه ملاحظ (بكسر الحاء) وملاحظ (بفتح الحاء) ولاشك أن الفصل بين الحالتين مسألة نسبية جدا.

إذن لامناص هنا من رصد المنتج الثقافي، بدل الثقافة كمعطى ذهني خارج عن حركية الواقع المجتمعي، وهو ما يسمح بتمييز المنتجات الثقافية عن غيرها من أشكال الإنتاج، بواسطة طريقة التبليغ التي يتضمنها مصطلح العادات والتقاليد، وهي كل ما ينتقل من الماضي إلى الحاضر، ويبقى مؤثرا ومقبولا من طرف المتلقين، وعلامة تقبله هي مدى الحرص على تبليغه من جيل إلى جيل، "ج.فارنيسي العولة والثقافة" 1999 (J-P. Warnier : Mondialisation et culture)

تحدث عملية التبليغ في مؤسسات المجتمع المختلفة عن طريق التطبيع والتربية، وما يعرف في المجتمعات الأقل تعقيدا بشعائر المرور (rites de passage) من مرحلة من العمر إلى أخرى، وتزيد المجتمعات المصنّعة بتأثرها الكبير بظاهرة انتشار الصناعة، والتقانات المتطورة للتبليغ السريع، وانتشار المضامين الثقافية على أوسع نطاق، داخل المجتمع نفسه، وإلى المحيط الخارجي، وهذه القدرة على التبليغ والانتشار، هي أحد عوامل تسريع التحول والتغيير وتدرّجه في الشدّة والعمق من الريف إلى المدينة، وقد يؤدي "الاقتحام" المكثف للتغيير إلى صراعات بين الأجيال، أو حجب جزء من الثقافة التقليدية في انتظار إنقراضها، أما شطب ثقافة قوم عن طريق الإقتلاع، فإنه كما يقول "سيمون بوليفار" لا يحدث أبداً بدون حريق. ينطبق التوصيف السابق على مجتمعات عادية، لم تتعرض لصدمة الاحتلال وللوضعية الكولونيالية، لانه في الحالة الأخيرة يكون للثقافة وظائف وصيرورة مغايرة في مواجهة حالة طارئة من خارج المجتمع، حيث يكون الصراع ليس بين الثابت والمتغير داخليا، وإنما بين كليهما معا من جهة، وضغط الوضعية الكولونيالية من جهة أخرى، وقد أشرنا عند الحديث عن اتجاهات النخبة في القرن العشرين إلى تباين أداء المرجعيّات الثقافية قبل، وبعد الثورة الجزائرية.

II-هل للثقافة خصائص عامة ؟

إذا غرضنا الطّرف عن العقبة المنهجية المشار إليها آنفا، وقلنا بإمكانية رصد الظواهر الثقافية من طرف ملاحظ استمد استعداداته وتوجّهاته وقيمه من تلك الثقافة نفسها، أو من طرف ملاحظ آخر متأثر بدوره بنمط ثقافي مغاير، يحمل المؤثرات السابقة التي تتحوّل عند الناس العاديين وعند العلماء إلى مرجعية معيارية، لا سبيل

إلى وضعنتها ، إذا تجاوزنا كل ذلك ، فإننا نجد أن للثقافة جملة من الخصائص العامة نشير إلى أهمها فيما يلي :

- 1- توجد في كل مجتمع ثقافة أصليّة تحدّد ملامحه الأساسية ، لها بعد تاريخي ومجال جغرافي ، فلا يمكن أن تنتقل العادات والتقاليد واللغة والقيم من سلف إلى خلف في فراغ ، أي خارج المجتمع الذي يُغذيها ، وبالتالي فإنّه لا يوجد مجتمع بلا ثقافة ، ولا ثقافة بلا مجتمع
- 2 - تدخل الثقافة في أوسع أو كيانات جغرافية تاريخية ، تزداد تمايزا كلما ابتعدت في التاريخ وتجزّأت جغرافيا ، إذ نجد في أوربا مثلا منبعا ثقافيا تتبناه كل بلدانها هو التراث الإغريقي الروماني ، والمسيحية التي تدين بها الأغلبية الساحقة من سكانها ولكن ذلك المنبع يتفرع إلى جداول متميزة ، وبالتالي فإنّه من الصعب الحديث عن ثقافة أوروبية وكأنها كتلة واحدة متماثلة ، ونفس الخاصية السابقة تنطبق على العالم العربي الذي ينتمي تاريخيا إلى ثقافة واحدة ، تجزّأت وظهر فيها الطابع المحلي في كل قطر على حدة ، وقد حاول ف. بروديل متابعة المنبع والتجزؤ في دراسته "لأجرومية الحضارات" وطبّق ذلك على حضارات الصين والهند وإفريقيا السوداء (F.Braudel = Grammaire des civilisations).

- 3 - تتميز الثقافة في عصرنا الراهن بظواهر الصراع بين الثقافات المحليّة والثقافات عبر الوطنية (transnationales) ، ولا تقتصر المحلية على التواجد في حيّز جغرافي ثابت فهي تتجاوز مكانها الأصلي ، كما هو الشأن في جاليتنا بالمهجر التي تتمسك بوجه عام حتى بعد الجيل الثالث بثقافتها الأصلية وتنقل نفس العادات نحو بلد الهجرة ، ولا علاقة لذلك بمسألة الاندماج (integration)

لأن الجاليات اليهودية مندمجة في مختلف نشاطات بلدان الهجرة الكثيرة، وهي متنفّذة، ولكنها ثقافيا متمسكة بتقاليدها الراسخة.

4 - إن الكيان الاجتماعي السياسي الأكثر تأثيرا في الثقافة، هو ما يسمى الدولة الأمّة (état-nation) الذي قد يجمع داخله مجموعة واحدة تنتمي إليه سياسيا وقانونيا (يعني من مواطنيه)، وقد تنتمي إليه ثقافيا مجموعة أو أكثر متواجدة في إقليم سياسي آخر، يأخذ ذلك الانتماء مبررات سُلالية أو عقيدية كما هو الحال بالنسبة لليهود والصرب (الأصل السلوفي) والجرمان وسكان كيبك الكندية، وقد يكون الإنتماء ثقافيا بحثا موزعا على كيانات مستقلة، ولكنها تلتقي في تبني لغة مشتركة وتراث واحد، كما هو الحال في الأقطار العربية.

5 - خاصية اللغة التي تُفصل فيها القول بعض الشيء، فعلى الرغم من أن الثقافة ليست كلمة مرادفة للغة، فإن بينهما وشائج قريى وتلازم، فإذا كانت اللغة لا تستغرق كل أشكال التعبير الثقافي، فإنه لا توجد ثقافة بلا لغة، ولا تعيش أية لغة، أو على الأصح لا توجد أصلا، إذا لم يكن لها ثقافة شفوية أو مكتوبة.

تظهر أهمية التلازم بين اللغة والثقافة في البلدان التي تستعمل أكثر من لغة، واحدة منها أو أكثر أصلية، إلى جانب لغات تنتمي إلى ثقافات أخرى، وهو أمر يؤثر على المجال الإدراكي للسامع أو المتلقي، إذ أن التخاطب الشفوي بالخصوص يتم عن طريق غلق الفراغات، أي فهم مقصود المتكلم أثناء حديثه، وتلك وظيفة المجال الإدراكي التي يهتم بها علماء النفس اللغوي، وتتمثل تلك الوظيفة في أننا لا نسمع إلا 70% على الأكثر مما يقوله لنا المخاطب، ونكمل الباقي من سياق الكلام.

يعرف المترجمون بوجه خاص ، أهمية اللّغة وعلاقتها بالثقافة ، فمن النادر أن يتقن الشخص لغتين بأرضيّتهما الثقافية بدرجة متساوية ، مما يجعل نقل المصنّفات العلمية والأدبيّة والفكرية من لغة إلى أخرى ، عملية شاقّة تتطلب الإطلاع على الثقافة المنقول منها ، والثقافة المنقول إليها ، فهناك تعبيرات في لغة ليس لها مقابل في لغة أخرى وهناك كلمات تحمل شحنة تعبيرية خاصة لا وجود لها في نظيراتها من اللغات الأخرى.

– أدى تزايد التبادل التجاري والمالي والسياحي في داخل الدول المصنعة ، وبينها وبين بلدان العالم النامي ، إلى تسابق الدول المتفوّقة اقتصاديا على توسيع نفوذها الثقافي ، وبالتالي لغتها إذ أن انتشار لغتها خارج حدودها الإقليمية ، يقدّم لها تسهيلات كبيرة للسيطرة على الأسواق ، ولذلك يطلب من رجال المال والأعمال المعنّيين بالتجارة الخارجية وإطارات قطاع السياحة أن يكونوا مزدوجي أو " مثليّي " اللغة.

6 – الملاحظ أن بعض المجموعات اللسانية تفقد الأعضاء الناطقين

بها لعدة أسباب منها :

أ – إن وجود لغات كثيرة في مجموعات سكانية صغيرة (البلدان الإفريقية) ، يدفعها إلى اللّجوء إلى اللّغة مُشتركة هي دائما لغة المستعمر السابق.

ب – إن الإنتاج العلمي والأدبي والإعلامي بلغة أخرى ، غير اللغة الأصليّة ، يحوّل بالتدريج اللّغة الأصليّة إلى لهجة فقيرة معدومة الموارد والتجديد ، وعندما تصل إلى نقطة التوقف أي غلق قاموسها اللغوي ، فإنها تصبح مقتصرة على التعبير عن الحاجات اليومية الموروثة عن الأجداد ، ويقبل أفرادها على مفردات

من اللغة الثرية المسيطرة للتعبير عن حاجات أخرى أكثر تعقيدا، والاستجابة الثقافية لمطالب لا يليها قاموسهم اللغوي، وهو ما يلاحظ في بعض المدن الجزائرية التي يستعمل فيها الجمهور خليطا يسمى "فرانك آراب" وهو نوع من التهجين اللغوي *Créolisation* من جراء التعرض للسّلخ الثقافي كما تتعرض التربة للتعرية النباتية والانجراف.

ج - يتوزع العالم على ستة آلاف مجموعة لغوية منطوقة فقط، أو مكتوبة أيضا (منها 200 لغة في إفريقيا) - (والملاحظ أنّ ثلث سكان القارة السمراء أي 200 مليون نسمة يستعملون العربية كلغة أولى أو ثانية) - سينطفي كثير منها قبل منتصف القرن الحالي، تتقدمها جميعا مجموعة من اللغات يرتّبها هاجيج " 1998 (C.Hagege) حسب عدد الناطقين بها على النحو التالي: الصينية - الإنكليزية - العربية - الإسبانية - الفرنسية.

و يذكر الأستاذ حميد الله أن اللغة العربية تتميز بوجود النص الديني الأصلي الوحيد الذي تُرجم 175 مرة إلى الإنكليزية، و70 مرة بالفرنسية، و60 مرة بالألمانية، حتى سنة 2000.

د - قامت البلدان الغربية المتطورة من ناحية الإنتاج الثقافي بمحاصرة و حتى العمل على تذويب اللغات المحليّة عندها ودمجها في لغة الأغلبية، حتى منتصف القرن العشرين، ففي فرنسا على سبيل المثال حرّمت مدرسة جول فيري اللغات المحلية من النظام التربوي كلّ، وشرّعت الدولة الفرنسية قوانين تمنع استخدام تلك اللغات في الإدارة والجيش، ويقدم " هيلياس" (P.HELIAS) البروطوني الأصل في كتابه "حصان الأنفة" 1975 (Cheval d'orgueil) نماذج

من القمع اللغوي مثل العقوبات على استعمال لغة البروطون في ساحة المدرسة، والمنشورات التربوية التي تقول صراحة، أو بين السطور، " من أجل وحدة فرنسا ينبغي محو كل اللغات المحليّة"، واللوحات التي تحمل العبارة التالية : " ممنوع البزاق والحديث بالبروطون ".

لم تسمح الدولة الفرنسية بإدخال اللغات المحلية، حتى سنة 1951 على أساس اختياري وفي مرحلة التعليم الثانوي فقط، وقد اعترض الرئيس شيراك في سنة 2000، وفي مارس من سنة 2001 على مشروع رئيس حكومته لإعطاء هامش صغير من الاستقلالية الإدارية الثقافية لجزيرة كورسيكا المتمردة، طبعاً ليس هناك أي تلميح أو تلويح أو مقارنة بين تلك النزعة البونابارتية، وبين المسألة الثقافية عندنا في الجزائر بوجه عام، والمطلب الأمازيغي بوجه خاص، فلكلّ بلد صيرورته المجتمعية وتجربته التاريخية، فلم تكن الفرنسية مضطهدة في عقر دارها، وعندما أحسّت بذلك سنّت القوانين لتعميم استعمال اللغة الفرنسية، واستنكار انتشار الإنكليزية وغزو الثقافة الأمريكية الذي سنشير إليه عند الحديث عن الخصوصية الثقافية الوطنية ضمن العولمة والعالمية الثقافية.

هـ - تبدو الأنماط الثقافية الكبيرة من خارجها، أي في نظر الأجانب عنها، وكأنها كتلة واحدة متجانسة ومتماثلة في كلّ أجزائها، وذلك صحيح للوهلة الأولى فالغربيون أو الأوروبيون بوجه عام يرون أن العرب كلهم يتشابهون في سلوكهم وتراثهم الثقافي الراهن، ولذلك نلاحظ في الكلام العادي أحكام قيمية كالقول بأن "العرب" يتميزون بكذا أو كذا، وتنشأ معاهد للأبحاث والدراسات خاصة بالعالم

العربي، ونحن في عالمنا نقول نفس الشيء عن الصينيين أو الهنود أو الإسبان أو الفرنسيين.

و - الحقيقة غير ذلك، فالكتلة الظاهرية تتضمن ميزات محلية أو إقليمية قد لا تخرج عن "الكل" الحضاري الجامع في خطوطه العريضة (العقيدة - اللغة - التمازج التاريخي)، لكنّ الثقافات تحمل أيضا طابع المحلية، وليست صورة طبق الأصل بعضها لبعض في الوطن العربي، أو أوروبا، أو الصين... فهي تتغير في سياق التحولات التاريخية لمواجهة ما يستجدّ من مواقف، ليست متماثلة في كل بلد على حدة، وأحيانا داخل البلد الواحد، وهنا تظهر أهمية متابعة الظواهر الثقافية من خلال وظائفها كما فعلنا عند الحديث عن الانتماء والهوية في الجزائر المعاصرة.

ز - نجد في دراسة قام بها مؤرخا الثقافة البريطانيان "هوبزباون، ورانجر" 1983- (E.HOBSBOWN, T.RANGER) بعنوان "اختراع التقليد" THE INVENTION OF TRADITION رصدا شاملا للتغيرات والتمايز بين بلدان أوروبا القرنين 19-و-20، وقد أبرزوا على الخصوص العوامل السياسية الكامنة وراء انتقاء مقاطع دون غيرها من الماضي الثقافي لتفعيلها في سياق معين، كما حدث في فرنسا عند عودة الملكية (La Restauration)، وفي بريطانيا في عهد "كرومويل" عند الانتقال إلى الملكية الدستورية، وفي ألمانيا في عهد "بيزمارك"، وقد انتهى الباحثان إلى التعميم التالي: تنطلق الثقافات من وسع (AIRE) حضاري واحد، ثم تتفرّع بالتدريج إلى ثقافات متفرّدة دون أن تفقد في الغالب الخيط الذي يربطها بالمنبع، ويرجع التفرّد الثقافي إلى عوامل جغرافية اجتماعية، وإلى قناة الثقافة

الأولى وهي اللغة ، وإلى الطريقة التي تعاد بها صياغة الموروث الثقافي في السياق التاريخي.

كما قام الأستاذ هشام شرابي من مركز الدراسات العربية بجامعة جورج تاون بالولايات المتحدة (وهو حاليا وزير في حكومة الرئيس الحريري الثانية) بدراسة إستشرافية عن مستقبل المنطقة العربية في ظل التبعية التقاليدية، وهي النظام الأبوي السائد في عموم الوطن العربي، والتبعية الخارجية السائدة أيضا في كل المنطقة مغربا ومشرقاً، ولاحظ أنّ التمايز تعمّق عبر ثلاث مراحل، انتهت أولاهها بتلاشي إرهاصات النهضة الأولى في آخر القرن 19 وبداية العشرين، ولم تحقّق الثانية التي تزعمتها البورجوازية الوطنية ما فشلت فيه الأولى، وأن الثالثة (ما بعد 1985) لا تقدم أيّ بديل إنّها فراغ تملؤه الحركة الدينية الشعبية التي تنقصها القيادة، وهي مثل سابقتها ليست لها نظرة استراتيجية للمعطى الثقافي السياسي.

هناك أيضا دراسات على غاية من الأهمية، قام بها أو يشرف عليها علماء من المنطقة مثل السيد ياسين (مركز الدراسات الإستراتيجية، القاهرة) وسمير أمين (المقيم في فرنسا) ومحمد عابد الجابري (من المغرب) والمرحوم محمد عزيز الاحبابي ومحمد العروي والأستاذ أبو القاسم سعد الله وعبد الله شريط والمرحوم عبد المجيد مزيان ومصطفى الأشرف (من الجزائر) بالإضافة إلى عدد كبير من مفكري وأدباء المهجر، وخاصة في باريس ولندن والولايات المتحدة.

III-الصناعات الثقافية: مقاييس السوق والرّبحيّة

إن وصف ثقافة - ما - بأنها أصلية أو تقليدية، لا يعني أنها منعزلة ومقطوعة تماما عن الثقافات المجاورة، وأحيانا حتى البعيدة، إن نظرة خاطفة على تاريخ الحروب والهجرات والإمتزاجات المختلفة بسبب فرض أو تبني مذاهب وأديان سماوية أو أنيميّة، يكشف على أن التبادل الثقافي هو القاعدة، وأن النقاء أو لنقل البكارة الثقافية هي الاستثناء.

يُخيل إلينا أن ما يسميه الأثنولوجيون والأثنوغرافيون من أوروبا وأمريكا بالثقافات البدائية (Primitive) ليس أكثر من نقطة افتراضية بين حالة ثقافتهم المتطورة وحالة ثقافات أخرى بطيئة التغير، ولا أثر فيها للصناعة الثقافية المُمكنة، فهي في الغالب لا تنتج من صناعاتها التقليدية إلا ما تستخدمه في المبادلات العينية أو الطقوسية، وبالتالي فهي مجتمعات " بدائية " غير نقدية، أي لا تستعمل النقود، وبمعيار العالم الصناعي، تصلح أن تكون فرضيّة للثقافة في حالة سكون طبيعي.

بعد التطوّرات التي أدخلتها الثورة الصناعية، وخاصة خلال القرنين 18 و19، تمكّن جزء من العالم المتقدم في المكننة والتصنيع من تصنيع المنتجات الثقافية، واختراع أدوات لنشرها أولا داخله، ثم خارجه، وأصبح بإمكان البلدان المصنّعة ترويج ثقافتها في أيّ مكان في العالم، وكذلك تصنيع ثقافات البلدان النامية وإعادة تصديرها إليها، وبالتالي ارتبطت الثقافة بالتقانات الصناعية، بل أصبحت التقانات نفسها هي الثقافة المعاصرة.

نقصد بالعالم المتقدم ما يطلق عليه حاليا اسم السلطة الثلاثية (Pouvoir triadique)، وتتمثل في شمال أمريكا وغرب أوروبا وجنوب شرق آسيا، ولغرض

التوضيح فقط نقول أن المدة اللازمة لطبع ونشر كتاب في واحد من بلدان السلطة الثلاثية، يمكن حسابها بالساعات والأيام، وهي تتطلب في الجزائر شهورا أو أعواما، ونظرا للقدرة على التمويل وتوفير أو اختراع التقنيات اللازمة للإنجاز والتسويق، فإن المثال السابق يمكن تطبيقه على مجالات أكثر تعقيدا مثل السينما توغرافيا والموسيقى والثروة الأثرية (الأركيولوجية) والفنون الجميلة الأخرى مثل الرسم والنحت، في كل تلك المجالات تكون الوضعية أشبه بسباق أخيل (بطل سباق أسطوري يوناني) مع السلحفاة.

بدأ استعمال مصطلح الصناعات الثقافية سنة 1947، عند علماء الاجتماع الألمان الذين أسسوا ما يعرف بمدرسة فرانكفورت، ومن أشهرهم " أدورنو " (A.Adorno) وهور خايمر (M.Horkheimer) و"هربرت ماركيز " (H.Marcuse) و" جورغن هيرماس " (J.Hebermas) ...، وقد إرتأى أولئك العلماء وخاصة أدورنو في مقارباته عن " الإنتاج الصناعي للسلع الثقافية، " أن إنتاج الثقافة " بالجملة " مثل السلع الواسعة الإستهلاك سيقضي في النهاية على الإبداع الذي لا يكون إبداعا إذا فقد جماليته وحميميته، وانفصل عن المبدع الذي يتحوّل في حالة الإنتاج بالجملة إلى مجرد قطعة غيار في جهاز ضخم رتيب ومُنمّط .

غير أنّ الاتجاه السابق ينتقد التصنيع الثقافي ويصفه من خارجه، ولا يقدم حلا أو إسعافا لما يسمّيه " فقدان نكهة الثقافة في حالتها الأصلية "، أي قبل تصنيعها، واستبعاد إمكانية التّمفصل (Articulation) بين الثقافة والتقانات الصناعية، وقد بقي هذا الموقف الفلسفي السوسيولوجي موضع جدل، من بين أنصاره القليلين على الضّفة الأخرى من المحيط الأطلسي إريك فروم (E .Fromm) المختص في المدخل الثقافي

لعلم النفس الاجتماعي وبعض علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيان الثائرين على التaylorية (Taylorism) الصناعية والكنزية (Keynes) الإقتصادية مثل لينتون (R.Linton) ومارغريث ميد (M.Mead) وغاردنر (A.Gardner) إلخ ...

في منطقنا كان التمثيل بين الثقافة والصناعة يحدث ببطء شديد، لأن الصناعة كانت في صورة منتجات ثقافية وافداً جديداً على البلدان العربية المستعمرة أو تحت الحماية، شهدت مصر نماذج منها في عهد الباشا محمد علي، وحملة نابليون، أسفرت مثلاً عن مطبعة بولاق وأستوديوهات الأهرام والديكور المسرحي، والبداية في أوائل القرن العشرين في استعمال آلات موسيقية غربية في النوبة الموسيقية التقليدية، ونفس الشيء أيضاً حدث في الشام ... أما في الجزائر فإن الصناعة الثقافية كانت تقريباً محتكرة من طرف الجالية الأوروبية، باستثناء الصحافة التي استعارت ووظفت بعض الوسائط الصناعية لأغراض كثيرة في مقدمتها أداة التبليغ الإعلامية (الجرائد) لنشر الوعي الثقافي بين الأهالي وخدمة القضية الوطنية، إلى حد ما المسرح الشعبي، وتعايشت كلها حتى منتصف القرن العشرين مع "البراح"، وحلقات الذكر والملحميات التي تذكر ببطولات الأسلاف، والقصص الشعبي المتداولة في الأسواق الأسبوعية والمواسم والأعياد.

شاع استعمال مصطلح الصناعات الثقافية خلال السبعينات من القرن الماضي، وشمل مفهومه كلّ المصنّفات التي تتحول عن طريق التكنولوجيا إلى منتجات ثقافية، تنطبق عليها مقاييس السوق الليبرالية والربحية (Profit)، وفي مقدمتها الصناعة السينماتوغرافية والصحافة والموسيقى وتجهيزاتها، مثل آلات التسجيل والكاست والأقراص المضغوطة وصناعة الورق، وبكلمة واحدة تشمل الصناعات الثقافية مضامين

التوصيل وكذلك أدواته من الشريط التسجيلي والتلفزيون، حتى الأقمار الصناعية وشبكات (web) الأنترنت والتليفون الحاسوبي الشّاشي (من الشاشة) المحمول. يساعد التحديد التقريبي السابق، على التمييز بين الوسائط وهي وسائل الاتصال، وبين المضامين الثقافية التي تحملها، وبما أن التحديد المذكور غير جامع، فإن تعريف " ترمبلي " (C.Tremblay) 1990 يبدو أكثر إجرائية وشمولية، فالصناعة الثقافية تتميز في نظره بما يلي:

1-تتطلب إمكانيات ضخمة وتوزيعا دقيقا للعمل، من الورشات الصغيرة، إلى المركبات الصناعية ذات التكنولوجيات العالية.

2-يمكنها أن تنتج وتعيد الإنتاج بالجملة، حسب نجاح الإشهار وقوانين العرض والطلب في سوق عالمية.

3-أنها تُسلع الثقافة (Marchandiser)، أي تجعل منها مجرد سلعة كغيرها من المنتجات القابلة للتسويق.

4-أنها تقوم أساسا على أنظمة العمل الرأسمالية، أي أن القطاع الخاص هو الذي يستثمر فيها ويديرها، وليس للدولة سوى إشراف غير مباشر يتمثل في وضع القواعد العامة (Pouvoir régulateur)، وقد يكون كبار المستثمرين والمديرين (Top-managers) هم الدولة نفسها.

5-أنها تحوّل مُنتج الثقافة أو المبدع، إلى عامل له علاقة بالسوق، ومن ثمّ ظهرت موضة المنتج الثقافي الأكثر رواجاً، أي تسويقاً (Best seller) وربحية، وكتابة القصص والروايات والسيناريوهات والموسيقى والأغاني حسب الطلب ودرجة النجومية، والمثال الشهير لذلك هو أغنية النجم

البريطاني إلتون دجون (E.John) في رثاء دَيَانا أميرة ويلز سنة 1997 ،
بعنوان شمعة في الليل (Candle in the night)، وقد بيع منها خلال ستّة
أسابيع 32 مليون نسخة، وتابعتها عشرات الملايين في القارات الخمس.
ينبغي أن نلاحظ أن الثقافة التي تتخذ الكتاب والمطبعة كوسيط للتبليغ ، لم
تخضع كليّة بعد لآليات السّوق في البلاد النّامية بسبب حاجز اللّغة، وانتشار
الأميّة، والدخل الفردي المتواضع ، والضّغط الذي تمارسه اللغات القوية والواسعة
الانتشار مثل الإنكليزية والفرنسية والإسبانيّة وإلى حد ما الألمانية والبرتغالية (في
أجزاء من إفريقيا)، ولذلك تنكمش جمهوره القراء والصناعات الطباعية في نخبة
صغيرة تتعامل أكثر مع المنشورات الغربية في الجامعات ونوادي المجتمع المدني.
(أنظر جدول حظوظ التمدرس رقم 1 في عينة من مناطق وبلدان العالم)

جدول رقم -1-

مؤشرات عدم تساوي الحظوظ في التمدرس

في بعض مناطق وبلدان العالم

مؤشر التنمية البشرية لسنة 1995	دخل الفرد من الناتج الوطني الخام بالدولار	نسبة التمدرس في المرحلة الثانية 19-12 سنة %	البلد أو المنطقة
09,30	1800 إلى 20,000	90-85	أروبا الغربية
0.890	11450	84	كوريا الجنوبية
0,792	4480	90	روسيا
0,446	1400	43.8	الهند
0,783	5400	74,3	البرازيل
0,853	7688	59	المكسيك
07,16	5030	54	إفريقيا الجنوبية
0,445	2230	17	باكستان

0,557	1040	47	فيتنام
-------	------	----	--------

نجد في قارتنا الإفريقية، أن الأدباء والمفكرين الذين يستعملون في كتاباتهم، لغات الولوف ويوروبا والهوسا والسواحيلي، تُطبع لهم أعداد قليلة جدا من النسخ، وإنتاجهم غير معروف خارج بلدانهم، كما أن الذين يكتبون وينشرون باللغة العربية في الجزائر لا يطبع لهم في الغالب أكثر من ثلاثة آلاف نسخة، وهو نفس العدد الذي يوزع في بلدية من بلديات أوروبا لا يزيد سكانها على 25 ألف نسمة .

لذلك أسباب لا مجال هنا لتفصيل القول فيها، ولكننا نرى أن الانفتاح، والانتقال إلى حرية السوق لا يعني استبدال الاحتكار بالفوضى، واقتسام رأس مال الدولة ونهش لحمه وتكسير عظمه، كما حدث للشركة الوطنية للنشر والتوزيع (ENAL) !

لا يوجد للكتاب الذين يستعملون اللغة العربية متابعون في الغرب باستثناء القليل الذي تمت ترجمته إلى اللغات الأخرى، مثل أدب الروائي طاهر وطار مؤلف روائع الرواية الجزائرية، والكاتبين العصاميّين المرحوم ابن هودقة ومرزاق بقطاش، وبوجدره الذي يستعمل لغتين في كتابة الرواية ويشارك في بعض المناظرات في فرنسا، يضاف إليهم عدد من الباحثين الجامعيين المعروفين على مستوى العالم العربي مثل أبو العيد دودو وسعد الله وركيبي ومزيان وعبد الله شريط، وقافلة كبيرة من رواد الأدب والفنّ الذين تألقوا ابتداء من السبعينات، وتجمعهم هيئات مثل إتحاد الكتاب الجزائريين، وجمعيات أخرى متخصصة في مجالات الفكر والفنّ والأدب، ولا يخفى أن الأسماء السابقة هي أمثلة فحسب، وليست للحصر أو التفاضل والتقييم المرتجل.

لا ننسى ونحن نستثني حركة الطبع والنشر. (الكتاب بوجه خاص) في إفريقيا (أنظر الجدول المرفق رقم 2) من أمواج العولمة والتصنيع الثقافي، أن ننبه إلى الظاهرة المغربية المتمثلة في ازدهار النشر الأدبي والدراسات المتخصصة في فرنسا، حيث يلجأ منذ حوالي ربع قرن عدد متزايد إلى دور نشر متخصصة في طبع ونشر الأدبيات المغربية، ويمثل الكتاب والباحثون في تلك الموجة نسبة عالية.

جدول رقم 2-

العناوين المنشورة سنويا حسب القارات وبعض البلدان

(عن تقرير اليونسكو 1998 world culture report)

مناطق العالم	عدد السكان بالملايين	عدد العناوين المنشورة	% لكل 100 ألف ساكن
إفريقيا - باستثناء جنوبها	599	7514	12
آسيا	3051	220665	72
مصر	63,3	5925	94
فرنسا	58,3	45311	777
بلدان البلطيق	7	6853	890

ولا بدّ أن نلاحظ هنا، أنّ النشاط الفكري والأدبي المنسوب إلى جزائريين مقيمين أو يتردّدون على فرنسا ليس له مكان بين القراء الفرنسيين، ولا يهتم به إلاّ المختصون، ونحن على علم بأنّه لا يوجد نص واحد في أي كتاب مدرسي فرنسي منقول عن أديب أو مفكر جزائري، ومنهم من هو في مستوى عالمي، وحائز على جوائز شهيرة.

لا نجد في البرامج الجامعية أيّ أثر لكتّاب أضافوا الكثير إلى الأدب المكتوب كما يقال بلغة فولتير، مثل مالك حداد، محمد ديب، كاتب ياسين، مولود معمري إلخ...، فضلا عن الدراسات والمقالات الكثيرة المنشورة ما وراء البحر عن الأزمة الراهنة ونظام الحكم ومسألة "الإسلاموية" والإرهاب...، وسوف نعرض فيما بعد لوجهة نظر "أ.ميمي" (A.Memmi) فيما يسمّى أدبيّات الضفّتين 1996 (Littérature des deux rives) والبريطاني هو بزباون في دراسته الموسوعية عن عصر

النهايات القصوى 1994 E . Hobsbown-the age of extremes

في القارة الآسيويّة احتفظت اللغات الوطنية بمكان متميز في التبليغ الثقافي، وفي الصين والهند واليابان وفيتنام وكوريا وجنوب آسيا بوجه عام، تستعمل اللغات المحلية في شتى مجالات الحياة ويتم التّأليف والنّشر الأدبي والإعلامي بنفس تلك اللغات، وعلى الرّغم من تداول اللغات الأجنبية بين النخبة العلمية والفكرية والتكنولوجيا، فمن النادر أن تستعمل لغات المستعمر السّابق مع غير الأجانب.

وتقدم بلدان البلطيق الثلاثة -ليتوانيا -إستونيا -ليطونيا التي انفصلت عن الإتحاد الروسي في وقت مبكر، نموذجا فريدا في مجال النقل والترجمة، حيث أن 60% من المطبوعات والمنشورات، هي ترجمة من اللغات الغربية ومن اللّغتين الصّينيّة

واليابانية، مع أن عدد سكانها (البلدان الثلاثة) مجتمعين لا يزيد على سبعة ملايين.

خلاصة

1- إن انطلاق التحديث من التراث والعقيدة لا يعني إلصاق إحداها بالآخر بالطريقة التلقينية المعهودة مثل " نعم كذا..... ولكن كذا....." وهو أمر تزخر به أدبياتنا وموثيقنا إنه يتطلب مراجعة قبلية لما علق بالتراث والعقيدة من صدأ، وهو يتطلب أكثر من ذلك : شجاعة أخلاقية، أي بدون مزيدة أو استلاب، شجاعة تصل إلى حدّ حذف وإزالة ذلك الصدأ من الأذهان والعقليات بدون ذلك يكون الحل الوحيد هو المحاكاة المفلسة للحدثا الغربية والبقاء عالة طفيلية على مائدتها الشحيحة.

2- يتمتع العالم العربي الإسلامي بروحانية عالية مصدرها الإسلام النقيّ من التلوثات ورماد عهود الانحدار فإذا سادت فيه العقلانية فلن تكون على أغلب الظنّ عقلانية مُتَجَبِّرة وعليها غشاوة من الماديّة الماركنتييلية إنها ستعترف بأن للعقل والتقانة حدوداً وأن للكون إله رحيم بعباده، إذا تراحموا فيما بينهم، وأن بين العقل والجسد روح هي مشاعر ووجدان وتسامح وغفران.

إحالات

باللغة العربية:

- 1 - أبوديب ك. = الإبداع الثقافي في مجتمع مجزأ، العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة ص 203-228، مؤسسة دراسات الوحدة العربية، محرر هشام شرابي، بيروت، 1986.
- 2 - بلاطة ع. = تحديات الأصالة الثقافية العربية، العقد العربي القادم، المستقبلات البديلة، ن م م ص ص 187-202.
- 3 - الحاج ي. = فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت (د.ت).
- 4 - هدسون مايكل. = الدولة والمجتمع والشرعية، المأمولات السياسية العربية في التسعينات، المستقبلات البديلة ن م م (ص 333-357).
- 5 - العروي ع. = التعريب في ثقافتنا على ضوء التاريخ، دار التنوير، بيروت، 1983.
- 6 - ياسين س. = بحثا عن هوية جديدة للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي، الخطاب والأصولية المنهجية والاستراتيجية، المستقبلات البديلة ن م م، ص 379-409.

باللغة الأجنبية :

- 7- Adorno T. , Horkheimer M. =La production industrielle des biens Culturels, Dialectique de la raison, Gallimard, Paris, 1974.
- 8 -Anderson Lisa = Democracy in the Arab World: A critique of the Political culture approach, Lynne Rienner Pub, 1995.
- 9-Appadurai A.= Modernity at large, univ. of minnesata Press; 1997.
- 10-Braudel F.= Grammaire des civilisations Arthaid, Flammarion, Paris, 1987.
- 11-Helias P.-J.=Le Cheval d'orgueil mémoire d'un Breton du pays Bigourdan, Peon, Paris, 1975 .
- 12-Hennebelle G.=Le tribalisme planétaire, Tour du monde des situations ethniques dans 160 pays, Arlea-corlet, Paris, 1992.
- 13-Habsbown E. Rangert T.=The invention of tradition, cup, Cambridge, 1983.
- 14-Iribarne PH.=Culture et mondialisation, gérer par -de la- les frontière, Seuil, Paris, 1998.

15-Tremblay G.=Les industries de la culture et de la
communication, Québec, Canada, 1990.

16-Warnier J.P. = Mondialisation et culture, Découverte, Paris 1999.